Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

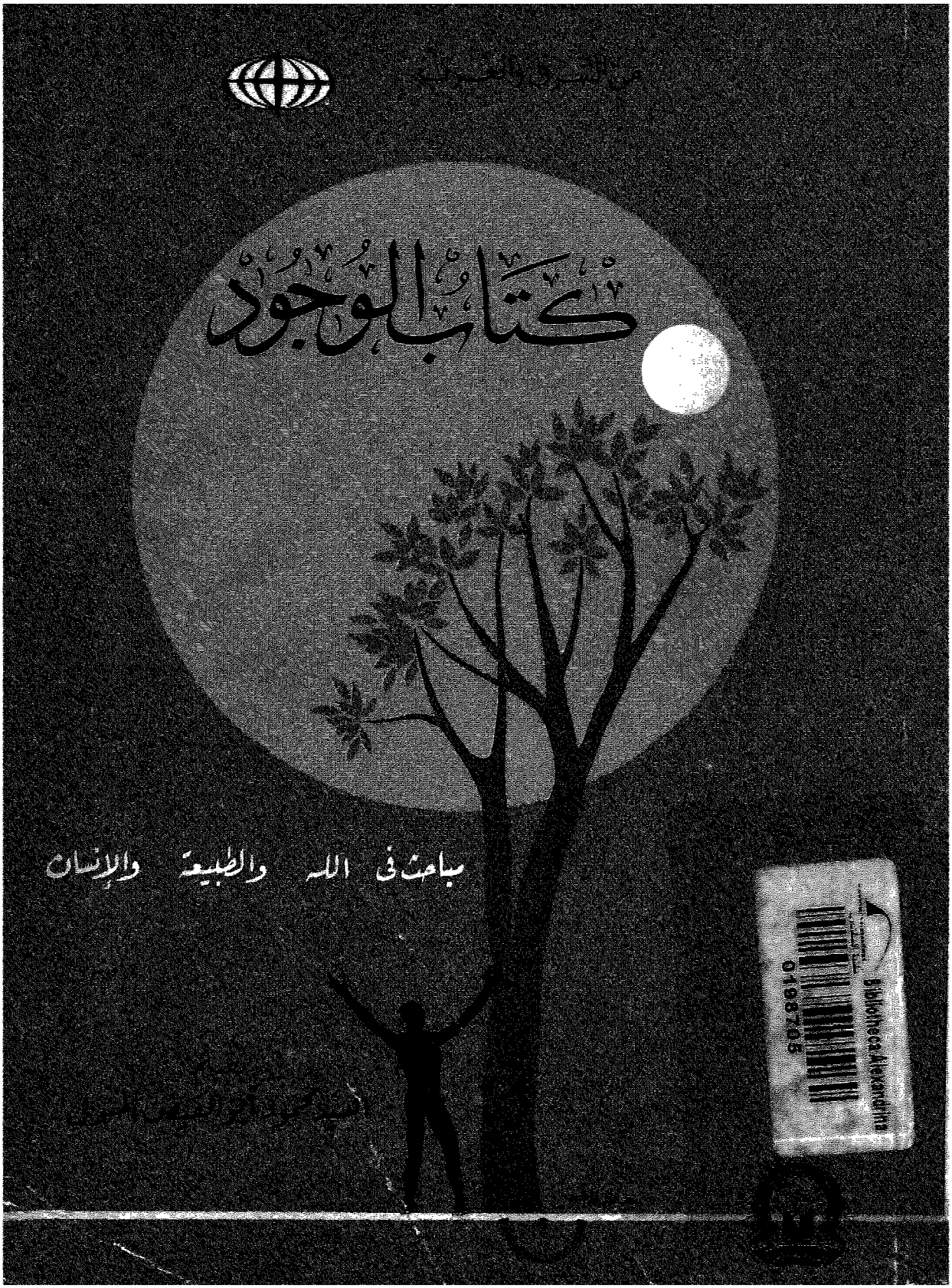

Bibliotheca Alexandrina
0193795

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من الشرق
والغرب

كتاب الوجود

مباحث في . الله . والطبيعة . والإنسان

بقلم السيد محمود أبو الفيض المنوفي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كلمة المرحوم عباس محمود العقاد

عن كتاب الوجود

ان هذا الكتاب هـــو ألزم الكتب لمن يتوخى البحث العصرى فى حقيقة الكائنات وفى حقيقة الوجود على الاجمال •

وهو كتاب مدروس أو « مخدوم » كما يقال فى اصطلاح المؤلفين ، لم يصدر باللغة العربية كتاب يحوى ما حواه فى هذا الموضوع ، ولم يكن معول المؤلف فيه على المراجع العربية وحدها ، بل لعل اعتماده على مراجع الفلسفة الأوربية بين قديمها وحديثها أظهر من اعتماده على مراجعنـــا المعهودة ، لأنه قصد فيه الى اقناع المحدثين الذين يلهجون بفلسفة العصر وأساليبه ويعرضون عن القديم لقدمه من غير بحث ولا اطلاع عليه !

وأجمل ما فى الكتاب ـ وليس هو بالنسق النادر فيه ـ كلامه عن عالم العناصر الذى هو العالم البرزخى بين المادة والقوة ، فمن هذا العالم البرزخى نتحقق أن الشىء المنظور يتحول الى غير المنظور ، ويصبح هـــو والفكر والروح فى الخفاء سواسية •

ولا نظن أن بين النور والقوة فرقا الا فى الألفاظ ، لأن الطاقة يستوى فيها أن تكون اشعاعا أو حركة أو حرارة أو « مغناطيس » أو كهربا أو غير ذلك ، ولا فرق أيضا بين الحرارة والنور والمنظور والنور غير المنظور الا فى طول الموجات وقصرها •

ومصدر الوجود كله على هذا النحو هو النور ، ثم النور الالهى وهو نشاط محض ، ولا فرق بين الوجود والعدم الا فى خاصة « النشاط » الذى لا يقاس دائما بمقياس المحسوسات ، بل يتعداها الى ما وراء الحس والعقل والخيال •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكتاب الوجود مظهر من مظاهر النزعة الروحية التى توازن عندنا تلك النزعة الجسدية ، كما تتمثل فى الصورة المثيرة والأقاصيص الماجنة والشواغل الحسية ، وكفى بأمثال هذا البحث عدلا كافيـا للموازنة بين النزعتين ، فانه لدليل على يقظة الجانب الرفيع من ملكات الانسانية بين المصريين وبين قراء العربية على التعميم وما أحوجنا اليوم الى اليقظة فى هذا الجانب الرفيع !

« عباس محمود العقاد »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمة وإهداء

الحمد لله وكفى ، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى « وبعد » فهذا كتاب الوجود ٠

أقدمه وأهديه الى سائر أبناء الجامعة الانسانية المتوحدين تحت هذا الاسم ٠ طبيعة ونشأة ونزعة مهما تغايرت لغاتهم أو نحلهم وألوان أدماتهم : أبيضها ، وأصفرها ، وأحمرها ، وأسودها ، وخاصة كل محب للحقيقة محضة ، غير متعصب لفكرة خاصة ، ولم يذهب بلبه بريق الظواهر ، ولم تقف نظرته للوجود دون لباب الحق الخالص ، ولم تهوش فطرته جدليات المذاهب المسفسطة ، أو آلية الحياة المادية !

والى كل لقن ذكى يدرك تعبير الحقيقة خلال صحائف الوجود ، ويفهم لغتها ، ورموزها ، ومعانيها ، الجلية جلاء الشمس لفريق من الناس الخفية خفاء الليل على فريق آخر ٠

على أن لغة الوجود لغة فصيحة سوية النظام ، بحيث تقع كل ذرة وكل عنصر فيه كحرف من حروفها ، وكل مركب ككلمة من كلماتها ، وكل حقيقة خفية تبعث على التفكير تمثل معنى من معانيها (١)

بيد أن الحقيقة مجردة لا تتفتح أصدافها عن معانيها الا لذى قلب نقى ، ومنطق سليم ، ونظرة الى الكائنات خالصة ، أو فكر حر لا تشوبه نزعة من تحيز ، ولا لوثة من جمود أو تقليد ٠

وانى لأعد كتابى هذا مجرد رسالة بسيطة الى أبناء الانسانية ومحبيها

---

(١) والمخاطب بتلك اللغة هى السرائر الانسانية الكامنة فى نفوس البشر وما تكنه من مدارك ووجدانات ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جميعا ، حملها أخ لهم ، سبقت الى فؤاده لمح من أضواء الحق ، وأراد أن تنعكس على أفكارهم ، واضحة جلية جلاء الشمس ، تهدى الى الرشد ، وتدعو الى سواء السبيل ٠

أو أعده خطابا متواضعا موجها الى مثقفى العالم وعلمائه وفلاسفته جميعا ، ليس له فى نفسه من قيمة سوى ما يهدف اليه من نزعة اخلاص وحب للانسانية ممثل فى فرد من أفرادها ، أو قل انها تقدم للفكر فى سبيل البحث الخالص والحق الصراح ٠

على أنها خلاصة مذهبى فى الحق ، ومبلغ نظرتى للوجود ، ونتيجة عرفانى ، وعصارة تفكيرى الذى ما فتىء منذ الصبا يبحث عن الحقيقة ، وهى جملة مباحث فى : الله ، والطبيعة ، والانسان ٠

فان عددتها فلسفة فلك ما تشاء لا فلسفة مثالية لا ترى للوجود من علة سوى الفكر وحده ، ولا تعتمد فى مجال البحث الا على منطق العقل المجرد ٠

ولا تعدها أيضا فلسفة طبيعيـــة أو مادية لا تعتمد الا على الخبرة الحسية التجريبية فقط ٠

ولا تعدها كذلك فلسفة حلولية لا تميز بين العلة والمعلول ، ولا بين ما هو واجب الوجود ، وما هو ممكنه ٠

وانما هى فلسفة مؤلهة واحدية تنزيهية ، توحد الوجود فى اطلاقه وتنزه علته عن الحلول والاتحاد وما يشبه ذلك ، ثم انها تسلم بوجود العقل والشيء (الفكر والمادة) فى وقت واحد بوصفهما مظهرين لحقيقة واحدة أولية ، هى فى ذاتها أسمى منهما ومقومة لهما ، وهى علة الوجود بأسره ٠

بيد أن آراءنا فى رسالتنا هذه مدعمة على منطق الحس ، وعلى منطق العقل ، ومنطق القلب جميعا ٠

وفى نهجنا الواضح صوغ من الذوق الفطرى ، وركيزة من الادراك العقلى ، ومؤيد من الواقع المحس ، فهى لا تباين الايمان (الذوق الفطرى)، ولا تتعارض مع الفكر (الركيزة العقلية) ، ولا تنـــاقض العلم الواقعى (الواقع المحس) ٠

هذا اذا عددت نظرتنا هذه للوجود مذهبا فلسفيا ، والا فقل معى : انها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى مجموعها مجرد بارقة وامضة من بوارق الحقيقة المطلقة ، فاضت عن قلب محب ومقدر لها ٠

تلك الحقيقة لا أدعى اليك أنى أملكها وحدى ! فان هذا مطلب لا يقول به الا من بعقله دخل ، أو من لا يقدر المعرفة قدرها ، فان أحدا من الناس لا يمكن أن يدعى أن الحقيقة وقف على عقله وحده ، ولا هو بمبتكر أو مبتدع لها مهما ذكا عقله ، وسما تفكيره ، وعظمت مواهبه ٠

وانما الحقيقة هى التى تملك على الناس سائر قلوبهم وعقـــولهم ، وتنبثق فى روعهم انبثاقا جيلا بعد جيل ، وتتراءى أضواؤها لفرد اثر فرد ٠

وقد كانت أستارها خلال الأدهار ولا تزال تتكشف للعقول والبصائر سترا بعد ستر بحسب قابلية الناس واستعداداتهم متبعة فى ذلك أسلوب ترقى النوع البشرى ، وتدرجه نحو الكمال ، فتنساب رويدا بأضوائهـا ولطفها الجذاب الى جميع الأفئدة والقلوب على السواء بحيث لا ترى كائنا من الناس جاهلا أو عالما ساذجا أو حكيما الا وفى مستقر فؤاده لمعة فى حقيقة ، وعلى طرف لسانه كلمة من حكمة ، قل نصيبه من ذلك أو كثر ٠

ولذا كانت الحقيقة نفسها مقيـــاس كل شىء : الكون ، والفكر ، والانسان ٠

وليس الانسان بمقياس للحقيقة كما يزعم سوفسطائيو هذه العصور الحديثة (أصحاب المذاهب : المادى والواقعى والآلى وأضرابهم) ٠

ولما أخطأ القوم وزن الحقائق النسبية بذلك القسطاس ، قسطاس الحق الخالص ، وبعبارة : قسطاس الحقيقة المطلقة ، واتخذوا من أشخاصهم المحدودة وتفكيرهم الآلى المحض مقاييس للوجود وعلته ــ حادوا عن طريق الفلسفة الصحيحة ، وصاغوا من ذلك التفلسف العقيم مقدمات لا تنتج ، ثم انهم يرغمون الحقائق اعتسافا على أن تكون نتائج مطابقة لمقدماتهم ، رضى الحق (فى نفسه) بذلك أو أبى ٠

بيد أن الفلسفة الحق الجديرة بهذا الاســـم هى العلم المطلق الذى يؤسس ببديهياته ورياضياته ومنطقه العقلى والحسى سائر قواعد العلوم التجريبية ، فضلا عن أن الفلسفة الحق فى الوقت نفسه هى العلم الغائى الأعلى الذى يجب أن يوحد بين نتائج مباحثه وأهـــدافه ، وبين النتائج القصوى لجميع العلوم ، فيربط علائقها ويعللها ويسلكها جميعا فى وحدة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شمولية من المعرفة العامة ، يتلاقى بها والحقيقة المطلقة وجها لوجه فى صعيد واحد ، أى أنها (الفلسفة) مبدأ العلوم المؤسسة لقواعدها ومن ثم هى غايتها التى توحد بين سائر نتائج العلوم فى صعيد من الانسجام والألفة والتوحيد والشمولية التى مبعثها حقيقة واحدة مطلقة ٠

فاذا ضيق مجال الفلسفة وتهافت موضوعها وحصرت وتحيزت ـ تقطعت أوصالها حتى تصبح علما جزئيا (كبعض العلوم الطبيعية) مقياسه التجربة الحسية أو (الانسان والأشياء) ، فلا يكون ثمة فرق بين العلم الطبيعى فى مفهومه والفلسفة فى مدلولها الضيق ، ولو كان هذا هكذا لاحتاجت تلك الفلسفة المزعومة ـ كبقية العلوم الجزئية ـ الى فلسفة أشمل منها وأعمق تفسر علائقها ، وتؤلف بين نتائجها ولا سيما أن موضوع الفلسفة العامة هو الوجود مطلقا : محسه ومعقوله ظواهره وحقائقه ٠ وبعبارة أخرى : ان موضوع الفلسفة هو فقه الألفة الرابطة بين مبدأ الوجود وغايته ، ثم تفهم حقيقته فى شمولها وتوحدها ، وأسلوب بحثها يتناول كل خبرة ذاتية أو موضوعية مما يشمل عالم الذات وعالم الموضوع جميعا ٠

ولن تصل الفلسفة الى ذلك الأوج وهو عالمها الحقيقى الا بمثل هذا الشمول ، وبامتلاك أسمى رتب اليقينية العلمية والعقلية ، وبذا يتحتم أن ينضوى تحت شمولها آخر ما ينتهى اليه العلم من نتائج ، وأول ما ينفرج عنه المعتقد من معارج للايمان ، وحينئذ يتجلى للباحث فى تلك الآفاق المتكاملة أن العلم والفلسفة والدين كلها نواح واتجاهات تهدف الى حقيقة وجودية واحدة هى وحدة الدين والفلسفة والعلم (١) ٠ ويقابل ذلك التوحد الشامل ما صيغت عليه الذات الانسانية من كفايات ٠ متدرجة فى سلم العرفان الذى يكون العلم أول درجاته وأقربها (كناية الحس) ، وتكون الفلسفة أوسطها (كناية العقل) ، ويكون المعتقد أعلاها وأعمها (كناية الوجدان الفطرى) ٠

فالفلسفة على هذا التقدير هى رائد الفكر الانسانى ، ومجلى حكمة البشر ، وسجل المعرفة ، وهى فوق ذلك كله الوسيلة لفهم الانسان لنفسه ، وما فطرت عليه من مواهب ونزعات وفهم الكون أيضا وما أسس عليه من حقائق وظاهرات ٠

---

(١) ومن التوفيق الالهى أن يكون هذا الاسم لكتاب وضعناه على هامش كتاب الوجود ليكون مجالا أوسع وأكثر تبسيطا يوضح ما يهدف اليه هذا الكتاب فى مجمله ومفصله ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والفلسفة معيار الأخلاق فعلمها بعض فروع الفلسفة ، ومقدرة القيم بكفايات المعـرفة الثلاث الحس والعقـــل والوجدان ، وهي المشرف الأعلى على جميع منازع الناس ، وتطورهم فى علومهم ومعارفهم ومعتقداتهم وسلوكهم وسائر اتجاهاتهم العقلية والسياسية والاجتماعية من حيث ان منازعهم اما غريزية أو حسية أو عقلية أو وجدانية فى سائر ما يدور فى المجتمع من مسائل تخص الجسم أو العقل أو الروح ، وحسب الفلسفة شرفا وقيمة أن تكون هى نقطة الصلة بين العلم والدين .

هذا واذا كانت السعادة لا تعدو فى غالب الأمر باطن الانســـان وأفكاره ـ على ما نعتقد ونقرر ـ فالتفكير الفلسفى المنظم هو مسبر السعادة وكشافها الوحيد الذى لا يخطىء الهدف وبهذا وذاك تكون الفلســـفة الصحيحة هى منار الانسانية الأعظم ، ومصباحها الذى يضىء حينا فينير لها طريق التقدم ، ويخبو حينا فتتسكع فى ظلمات الجهل والحيرة الى أن يضىء لها ثانية ، فتسير الى الأمام ، وذلك فى كل ميادين العلم والفلسفة والدين .

وحسبك دليلا على صحة هذا الرأى أن الفلسفة اذا تهافتت تهافت النظر العقلى ، وضل وتعرجت سبله ، فيتهافت الخلق بل والمعتقد تبعـا لذلك ، ويرتد تفكير الانسان الى ظواهر الحياة الآلية ، ليعتصر ما فيها من منفعة مادية اشباعا لأنانيته ، وسدا لمطالب الغريزة .

ولكى يكبت العقل فى مثل هذه الأحوال ما فطرت عليه الذات الانسانية من نزعات متسامية ويخفيها يلحد عنتا أو تجاهلا أو يتشكك، أو يتظاهر بالملا أدرية ، فيعود شاكا فى نفسه وفى قيمة تفكيره ، ثم فى سائر الحقائق والقيم كلها مع أن القارىء لكتابى هذا : اما أن يكون طالب حكمة يصبو الى ثقافة فكرية عالية ، أو تهذيب نفسانى رفيع ، أو عالما يذهب مذهب العلم الخالص ، ويهدف الى ما وراء مناطق العلم الحاضر من آفاق أبعد مدى ، وأوسع نطاقا .

واما ان يكون فيلسوفا يتسامى بنظرته الى أعلى آفاق الفلسفة وأشمل حقائقها .

أو رجل دين ينشد معتقدا خالصا من الشـــوب ومنزها عـــن التحيز .

أولا يكون هذا ولا ذاك ، ويكون ملحدا لا يؤمن بشىء ، فان كتابى قد وضع لأولئك جميعا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وانى لا أقصد أن أخص به شبابنا المصريين أو الشرقيين فقط بل أقصد ان اخص به الشباب العالميين جميعا ، وأرمى الى توجيههم نحو حياة أفضل وقواعد للسلوك والاجتماع أقوم .

أولئك الشباب الذين لا بد أن يكونوا قد علمهم فساد نزعات عصرهم بفساد توجيهها وبالتناحر البشرى الواقع فيه أن الانسانية كانت تسير على غير هدى من فكر متثبت ، أو ايمان مرشد ، أو مبادىء صالحة موجهة ، أو خلق قويم .

أولئك الشباب الذين لابد أن يكونوا قد فهموا جيدا أن التقدم العلمى والصناعى فى عصرهم ـ وان كان قد شمل كل شىء ، وسهل وسائل العيش ويسرها ، وأوسع من مطالب الغريزة وعددها ، وأكبر من شأنها ـ قد أهمل من حسابه ترقية الانسان نفسه ! (روحيته وايمانه وخلقه !)

وبعبارة ثانية : ان كل شىء قد قطع شوطا بعيدا فى طريق التقدم الآلى ـ المسكن والحقل والمتجر والمصنع والآلة ـ على حين ان شخصية الانسان الأدبية ـ قد قطعت شوطا آخر معاكسا فى سبيل الانحدار والتقهقر .

وبعبارة ثالثة ربما تقتضى النتيجة المحتمة أن نقول : ان القيم الأخلاقية والعرفانية قد فقدت قوتها وروحها تماما ولا علة لذلك كله الا أن العلم والفلسفة فى العصور الحديثة قد حادا عن الطريق الواجب عليهما سلوكه (١) متأثرين بسلطان المادة وأحكام المنفعة الاقتصادية . وابتدع القائمون على بحوثهما ـ كتلهية للعقل الواعى وتخدير لمنازع الوجدان ـ مناهج ونظما آلية محدودة ، ثم أطلقوا على تلك الابعاض من أشلاء الفلسفة أسماء لفلسفات عدة لا يأتلف معها العقل ، ولا تقرها الفلسفة الحق . ولا تطفىء ظمأ الروح كالوضعية والواقعية والاستوائية والوجودية الخ (٢) ذلك فى الحين الذى تصبح فيه الحقيقة كل يوم وكل لحظة من يوم مدوية فى أقصى أقاصى السموات وأعمق أعماق الأرض بصيحاتها القوية المروعة الخالدة . هاتفة بالانسان وعلمه وفلسفته :

« أيها العلم ، وأيتها الفلسفة ، قفا ، وراجعا الحساب ، ودعا الجمود والحصر والتقيد بالحس ، وأحكام المنفعة الخاصة ، ثم ردا

---

(١) طريق العلم المجرد والفكر الخالص والخدمة الانسانية الصادقة .

(٢) راجع ذلك البحث فى كتابنا وحدة الدين والفلسفة والعلم فى مجلداته الثلاثة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البصر الى حقائق الماضى ونفحات المستقبل معا فى وقت واحد ، وأعلنا أن حلقات الترقى جميعها متسامية نازعة الى التكامل والى المعرفة الروحية ، والايمان فوق المعرفة المادية والغريزية ، تلك الحقائق التى يقع موطنها فى عالم ما وراء الحس والغريزة وسائر ما يحتويه المحس من حوادث وأشياء ووراء مدى ما تصل اليه وسائل البحث العلمى والخبرة الحسية فى المعامل والمختبرات !

« واعلما أن الوجود فى مجموعه وحدة كلية شاملة ، يتصل حديثها بقديمها ، ويرتكز ظاهرها على خفيها ، وما عليكما (الفلسفة والعلم) ان تتقيدا بقانون الحواس حتما أو بقانون الفكر وحده حتما ، وفى العالم الخبرتان المتقابلتان الذاتية والموضوعية . ولا تقوم احداهما الا على دعائم وشواهد من الأخرى ، وتؤصلهما حقائق أولية حسية وعقلية سابقة فى الوجود عليهما (١) . كما لا تبزغ فى الواقع كل زهرة ظاهرة الا من بذرة مختفية ، فما الحس بمستغن أبدا عن العقل ، وما العقل بمغن عن البصيرة ، وما ظواهر الوجود مهما جسمها الحس بكابحة لطموح نفس الانسان الى استكناه كنههما (النفس والحقيقة) ولا تكف تفكيره عن الرغبة فى عرفان ما وراء الأشياء الواقعية من الحقائق » .

هذا ما تقوله الحقيقة للعلم والفلسفة ، ثم تفرغ لوجدان الانسان خاصة قائلة :

وأنت أيها الانسان السادر التائه فى صحراء المطامع فتوهم أنه اكتفى بالقشر دون اللباب ، أنت يا من أظمأه الجشع ، والجأه الى الارتواء من بحره الملح الأجاج الذى لا يرتوى وارده ، وخدعه سراب الأمانى ، وما زال يجد فى طلبه حتى اذا جاءه لم يجده شيئا .

هلم وارفع رأسك ، فثقف عقلك ، وهذب نفسك تثقيفا وتهذيبا صحيحين ثم تسام بذاتك الانسانية الى سماء المعرفة اليقينة والايمان والحب والايثار ، فهناك ترى وحدة الانسانية كعائلة واحدة . وهناك الامن والراحة والسعادة ، تلك الثروات الحقيقية التى لم يعطك شيطان الانانية والجشع فى مقابلها جميعا سوى ذلك العيش التافه الفانى .

هلم واستوعب أضواء بصيرتك ، وما فى ذاتك الانسانية من قوى

---

(١) كالبداية العقلية فى الخبرة الذاتية ـ وكالطاقة والذرة غير المرئيتين ـ فى الخبرة الموضوعية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونزعات نبيلة متسامية متكاملة ، واملأ صدرك مع الهواء الذى تستنشقه بنسمات ايمانك من جو قلبك ، فالهواء والايمان صنوان لا تعيش الا بهما ، وتيقن أنه ان لم يهدك هدى قلبك ووحى بصيرتك فما عقلك بمجديك نفعا ما زال ينافقك ، وما دام الحس يخدعك .

واعلم أن العقل لا يسيطر على الحواس الا اذا استقام فى أحكامه، ولا يستقيم العقل فى حكمه الا اذا قومه القلب ، وآنئذ يكون نعم المرشد والموجه للانسان : منطق يؤثله حس صحيح ، وعقل رجيح ، وقلب قويم والا عكس المنطق ، وانتكس أسلوبه ، وانحصر التفكير فى الأنا (الحيوانى فحسب) وبذا يسخر أسمى ما فى الانسان من مواهب لأخس ما فيه من غرائز ! وأنت عليم بأن ليس خبز المادة بمشبع روحك وان كان ضروريا لجسدك .

وهل شبعت نفس حى من الشهوات وان كثرت ، وأقنعها المال وان تضخم ؟

وثق بأن التنازع والحرب بينك وبين أخيك لا يفتأ كل منهما دائما دائبا ما لم ينجدك الحب والعدل ويأتك الايمان بالسلم والأمن والحرية.

وفى النهاية عسى أن يفيد الشباب مما أوردناه فى هذه الرسالة من فكر ومثل وأهداف للحق (فى ذاته) كدحا لأنفسهم فى الحياة ـ أن يفيدوا مسلكا قويما جديدا ، وعسانا أن نكون قد زدنا بعملنا هذا ولو لبنة فى بناء الانسانية المقدس أو شعاعة من نور تضىء قليلا أو كثيرا سبيل ترقيها الى التقدم والاخاء .

ولعلنا نكون قد خطونا خطوة واسعة المدى أو محدودته فى سبيل واجبنا نحو : الله ، والحقيقة ، والانسان .

هذا ولنا عظيم الأمل فى انصاف المفكرين من أبناء الانسانية ، وفى تقديرهم لما هدفنا اليه من نزعة وغاية تقديرا سويا والا فلنا فى الله أمل أعظم ، لأنه هو منشىء الحق ومقومه ، والمكافىء على الصواب والمتجاوز عن الخطأ وهو فوق ذلك كله أهل الرحمة والمغفرة .

فتحيتى الى قارئى وناقدى ومخالفى فى الرأى وموافقى على السواء ..

محمود أبو الفيض المنوفى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الأول

الفصل الأول

فى أصل الوجود

هذا الوجود الواقعى الملىء بالنشاط والحركة أمر واقع بالضرورة، وهو وجود فيه نظم وحالات من التنظيم والتشريح تسترعى الذهن وتدعوه الى البحث ، ومجموعه يكون كلا مطلقا لايعقل صدوره الا عن علة • ولا ينزع فى اهدافه الا الى غاية ، ثم يقرر وجود علته ، ويدل عليهـــا مايتضمنه الوجود نفسه من ألفة وترابط وفاعلية وحياة ، وما يبدو فى نظمه وتنسيقه من ادراك وارادة يظهران فى أرقى كائناته الحية (كما هو فى الانسان) بحالة جلية واضحة ، وكلها خصائص تظهره كجسد واحد حى •

هذه الحقائق الدامغة تتكشف لنا لدى الخبرة الكـاملة ــ بالحس والعقل والوجدان ــ خلال حركات الوجود وفى أثناء حوادثه وترتيب قوانينه ، وبعبارة أوضح خلال كل ما فيه من شىء مدرك وعقل مدرك ، فتظهر لمشاعرنا كما لو كانت مقدمات منطقية عقلية منظمة تليها وتتوجها نتائجها المعقولة •

ويبرر الغائية فى الوجود ماهو واقع فيه بالفعل من تطور ، وترق ، ونزوع للتكمل •

وحتمية وجود الوجود ذاتا وموضوعا وعلة ــ وهو شرط التكامل ــ حقيقة لا تحتمل الشك لواقعيته وتمكنه فى الوجودية ومناقضته للعدم ، وميله بسائر ما يحتويه للتحول والصيروزة والتكمل ، الامر الذى ينبىء عن قصد فيه ، وغاية له ، وعلة مدركة تؤئل كلّ ذلك •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثانى

مراتب الوجود

١ ــ فهو (الوجود من جهة حوادثه وتطور تلك الحوادث كون ممكن متشييء منظور يدركه الحس ، ويختبره العقل .

٢ ــ وهو من جهة أفاعيل نشاطه المتنوعة وسننه المتغـــايرة ، وشمول تلك السنن لحوادثه . وما وراء كل ذلك من اســباب خفية لاكم لها ــ وجود شامل معقول .

٣ ــ وهو من جهة علته الثابتة النشيطة وخفـــاء تلك العلة واستعصائها على الخبرة الحسية ــ وجود ايجابى غيبى مطلق يدرك الفكر السليم وجوب وجوده .

ومعنى ذلك :

١ ــ ان الوجود الممكن عالم محس متشـــييء ، ولشـــيئيته واقعية فى الخارج ، وللأشياء صفات وكيفيات ، وأحاسيس تتأثر بها حواسنا . ويصور لنا ادراكنا الحسى فى الذهن فكرة عنها ، وان كانت تلك الأشياء تبدو لأذهاننا على غير ما هى عليه فى الواقع ، لأنها ــ كحوادث ــ متحولة سريعة التطور والتغير ، وان تراءت لنا كأعيان ثابتة ساكنة .

٢ ــ ولوجود ما يكمن وراء تلك الحوادث والظواهر الكونية المحسة من علل قريبة أو بعيـــدة منظورة كالقوة والطاقة والقوانين وما الى ذلك . تلك العوامل الخفيـــة التى ندركها بعقولنا ، ثم ندرك مع هـــذا الادراك فى الوقت نفسه . أن لنا ذوات مستبطنة تدرك ، وان فى الخارج موضوعا يدرك ، لأجل ذلك كله حكمنا بأن للوجود باطنا معقولا ، كما أن له ظاهرا محسوسا وله فى ذلك مثال هو الانسان .

٣ ــ والى هنا لا يقف العقل ، بل تقضى عليه ألفته ويوجب عليه منطقه السليم أنه لابد أن يكون وراء كل ما نحســـه من شيئية الأشياء وكل ما ندركه من مدلولاتها وعللها الثانوية المتعددة ــ علة أولية خفية ، لا تحد ، ولا تتحيز ، وتكون أسمى من الفكر ومن الشيء جميعا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبعبارة أوضح أقول :

لابد أن يرى كل من له مسكة من عقل سليم غير متحيز أنه وراء كل ذلك (كل منظور وكل معقول) علة أولية ذات ادراك وقصد وغاية تصلح أن تكون سببا أوليا لهذا الوجود اذا توافرت لها شرائط العلة الكاملة ، ومن هذه الشرائط أن تعلل ذاتها ومن ثم تعلل فى الوقت عينه وجود الكائنات وأسباب نظمها وعلائقها .

فيكون وجود العلة كحقيقة أولية لكل شيء أمرا ضروريا حتميا تقضى بضرورته ألفة العقل ومنازع الوجدان .

والصواب يتطلب أن يكون وجود العلة وجودا ذاتيا وجوبيا مجردا ، وعليا فاعليا كسبب أولى للوجود مطلقا يجمع فى مفهومه كل معانى الشمول والوحدة والفاعلية والعلية والغائية بأوسع ما تدل عليه تلك المعانى .

هذه الحقيقة الكامنة فى مطلق الوجود (بلا تحيز) تبزغ لأفكارنا بالفعل حال تأملنا العميق فى النتائج لخبراتنا (الذاتية والموضوعية) خلال حوادث الكائنات ونظمها وقوانينها ونتائجها ، فندركها بعقولنا وبصائرنا وان كانت لا تقع عليها حواسنا ولا تصل اليها تجاريبنا العلمية المحسة ، بيد أن تلك الحقيقة هى هدف معارفنا وموضوعها الأعلى ، وهى أيضا الباعث لنا على التثبت فى أبحاثنا العلمية والفلسفية .

وانا لنوقن جد اليقين الناشىء عن الخبرتين : الباطنية والخارجية ويوقن معنا كل باحث ذى ادراك سليم وبصيرة محررة ينشد الحقيقة مجردة عن كل تحيز وغرض أن الوجود فى ترابطه واتساقه وانسجام أجزائه يبدو كأنه كائن حى واحد مؤتلف الخلايا والأعضاء والوظائف والغايات ، يدبره ويقوم على رعايته روح سام منظم واع ، وتفيض بين جنباته الحياة والوعى وتشرف على مجرى حوادثه وحركاته وقوانينه ونتائج أفاعيله ارادة عاقلة تظهر خلال الحادثات ، كما لو كانت منبعثة عن ذات مطلق مدرك ، يدرك ما يريد ، ويؤثل وحدات الوجود بضروب من الاتساق والقوة والطاقة ، وكلها خصائص متناغمة متكافئة متكافلة على الابداع والتطوير والترقى . وكأن هذه الكائنات ورائدها النزوع للترقى العام عملية رياضية تبعث على الفقه بأن مصدرها كلها مصدر واحد معقول ، وبعبارة أخرى تصدر عن ذات واحدية تتمتع بأسمى درجات الوعى والارادة والقوة ، وان كانت غيبية استبطانية فهى تظهر مع ذلك فيما يبزغ عنها من ضروب النشاط المتغاير فى خصائصه العقلية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والحسية ـ وهى متوحدة ـ لأنها أشمل وأعمق وأجل من كل محس فى الكائنات أو معقول .

الفصل الثالث

عوامل الايجاد

وأول ما ينبض به قلب الوجود النابض بالادراك والقوة والنور من ضروب النشاط الخفى هو ذلك النظام الذرى الدقيق الذى يؤسس كل شىء منظور بما يحتويه من طاقة غير منظورة ، وينوع بحركة نواته المركزية وسياراتها وكهاربها سائر العناصر المعروفة المتوحدة المصدر فى الحقيقة والتى يقوم على مركباتها الكيان الطبيعى بأسره من الذريرة الكيمائية التى لا يقع عليها الحس الى أكبر مجرة وسديم فى النظام الكونى المحس .

ومعنى هذا أن أشياء الكون ليست فى حقيقتها طبق ماتراه من مظاهرها المجسمة ، وانما هذه فى الواقع مجرد مظاهر وحالات لقوة عامة ذات طاقة نشيطة تركب وتحول ، وهى فى ذاتها لا تقع عليها حواسنا. ومبعثها غيبى أيضا فيما يبدو للذهن الواعى وكأنها مقودة بعقل مدرك ينظمها ، أو كأنها خصائص تدل على وجود علة أولية غير منظورة تكمن وراء القوة والمادة جميعا ووراء العقل أيضا .

وبعبارة أخرى ان أشياء الكون المحسة وحوادثه المنظورة فى أقصى ما يصل اليه التحليل العلمى ـ مجرد حوادث سريعة التتابع والتتالى ، ومجرد طاقة تتحول وتتطور ، تحت تأثير عامل آخر خفى سببى غيبى متوحد يحرك ويحول وينظم ، أو قل انها أثر لنشاط علة سامية وراء العقل والقوة والشىء تضع للكائنات سننها ، وتحفظ عليها نظامها وألفتها ووحدتها ، وقد جبل العقل الانسانى على البحث عنها بغية عرفانها كأعظم مطلب له .

والمنطق الفكرى أو الفلسفى السليم يقضى بأنه لابد لهذا الكون المتغير المستمر التحول والتطور من علة ثابتة مركزية أولية غير متغيرة تحدد وتنوع وتنسق حركاته ، وتنظم قوانينه ، وتدفعه الى غايته المقصودة من وجوده . (لا وجود بلا غاية)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والبديهة العقلية توحي الى مداركنا الصحيحة بأن كل متغير ومتحول ليس له وجود من ذاته ولا قيام له بذاته وذلك الوصف منطبق تماما على المادة بجميع خصائصها وأحوالها ، بل على سائر الكائنات الطبيعية ومن ثم تسقط الواقعية كوجود ثابت أو أنها على الاقل تبدو فى واقعيتها الظاهرية بدلا من ظاهرها على غير حقيقتها ومن ثم يذهب الثبات الوجودى للاشياء الطبيعية ويتقرر التحول كقانون شامل لها متضامن مع قانون الترقى العام . وهذا يقتضى بالضرورة القول بالاحتمـــالية لا بالحتمية من جهة العلم الطبيعى وبالأخص فى عصرنا الحاضر ، وفى ضوء العلم الحديث وما كشف عنه من وسائل لتشعع المادة وتحويلها الى مجرد طاقة اشعاعية احتمالية النتائج .

ومن البداهة بمكان أن الموجود الذى لا وجود له فى ذاته ولا من ذاته لا يعقل أبدا أن يكون علة أولية لغيره أو لنفسه ولا موجودا لما عداه ،كيف وهو مفتقر فى وجوده وفى تصرفه الى مقوم سواه ؟ وذلك بلا ريب هو مبلغ المادة من الوجود الحقيقى حيث قد أصبح واضحا اليوم أن لا وجود لها بالذات ، وانما ترجع كينونتها الى عوامل خفية ، تكونها ثم تصرفها وتحولها من مجرد طاقة الى مادة ، ثم الى طاقة أخرى وبكيفية أخرى وهكذا دواليك .

واذن تكون تلك العوامل المكونة للمادة والمحولة لها وهى خفيـــــة أثبت فى حكم الوجودية والواقع من المادة المتشيئة نفسها .

ومن المستحيل أن يوجد عوامل كتلك العوامل الوجودية التى نلمح أثرها البليغ فى الكائنات بلا عامل متوحد وراءها يقومها وينظمهـــا ، وبعبـــارة أكثر وضـوحا وان كان خفيا عن الحس والتجربة العلميـة المحضة أن لابد لهذا الكون الامكانى المتغير ، ولعوامله الخفية ، وقـواه المؤثرة فيه المحولة له سواء كانت الطاقة الناجمة عنها مكيفة بحـالة تحس أو بحالة تدرك ولا تحس ــ أقول لابد من وجوب وجود عـــلة متوحدة تصدر عنها هذه الكائنات كلها وعللها الثانوية وتنتهى اليها ، وتكون تلك العلة الاولية ثابتة الوجود واجبته ، تضع لوحدات الكائنات المبادىء ، وتحدد لها الغايات وتخلع عليها من نشاطها الذى يبـدو فيها ، والذى تبتدىء به حركتها ، ثم تدفعها الى ذلك التطور والترقى المشهود لنا فى مجموعها . وتشرف عليها ، وتكون ذاتها قد تضمنت ضمن نعوتها الكمال الذى ساقت به وجذبت اليه الكائنات كمثـــل أعلى وهدف للتطور .

تلك العلة التى يجب أن تكون كاملة الوجود ، ومقومة لغيرها يلزم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن تكون متفردة بالأبداع والفاعلية والأرادة ، تلك التى تحتم ألفة العقل ومجرى الحوادث الوجودية بأنه يجب أن تكون هى المبدأ أو العلة واليها يجب أن تنتهى الغاية .

وعلى ضوء ما تقدم يكون هذا العالم الكونى الطبيعى بسائر ما فيه من منظور ومعقول مجرد حالة من حالات الصيرورة العامة ، وبعبارة أخرى مجرد « واسطة » « وواسطة فقط » . بين الأصل الأزلى الذى بزغ عنه ، والغاية الأبدية التى يهدف لها فى تطوره ، ثم يصير فى النهاية اليها .

الفصل الرابع

استقراء علائق الوجود

وأنت أيها القارىء ، لو نظرت معنا نظرة سليمة لهذا الكون الماثل لحسك وعقلك لاستخلصت من ذلك عدة حقائق :

منها ـ أن الكون فى مجموعه متحـول دائم التطـور ، لا يثبت ولا يستقر على حال ، وذلك أمر لا شك فيه ، وهو يدلك على أنه عالم امكانى احتمالى بحت .

ومنها ـ أن الكون مع الكثرة التى تشاهد فى جزئياته ـ ليرى كما لو كان يكون كلا واحدا ، له صفات تغاير صفات جزئياته ، وله تسـام وترق خاص بالمجموع ، مما يحملك على الاعتقاد بل على اليقين بأن الكون قد اكتسب سائر خصائصه المتنوعة من خصائص غيره ، وبعبارة أخرى: أفاد خصائصه من موجود آخر ثابت ، كانت لخصائص الوجودية العليا فيه ذاتية ، وليست معارة له من غيره ، ولا متحولة ، كما يبدو فى صفات هذا الكون الطبيعى وخصائصه الماثلة لك ، الدائبة فى التحول .

ومنها ـ أنك تلمح بعين العقل فى هـذا الكون ـ ووراء أوضاعه ونسبه وعلائقه وكيفياته الواقعة وسننه التى يسير ويتدرج على مقتضاها وعيا ساميا واضحا ؛ يضبط نسب الكائنات بأسلوب خفائى على الحس والعقل معا (التجربتين العقلية والحسية) ، ويحدد علائقها ، وهو مباين أتم المباينة بذاته وخصائصه لخصائص الأشياء المحسة وطبائعها ، على أنه وهو من الاطلاق والعلم بحيث لا تظهر أفكارنا بالنسـبة له ، الا كأضواء وامضة باهتة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الثانى

الفصل الأول

عالم الوجوب وعالم الامكان

وكل ذلك ـ خفائية العلة الاولى ، وشمولها ، وبلوغ فاعليتها ـ ينتج نتيجة منطقية بارزة لافكاك للألباب عن تقريرها وهى : ان عالما كونيا مثل عالمنا ، وذلك شأنه من التحول والتركيب والتحلل والنشوء والتطور ويلمع خلاله ادراك مدبر ومقدر ـ لا بد من اتصاله فى النهاية بعالم على وجوبى ثابت ، فيه ـ أى فى ذلك العالم الأعلى ـ يوضع تصميمه وتحدد الغاية التى يسعى نحوها ، والصيرورة التى يصير اليها .

ذلك العالم الاول هو عالم الوجود الوجوبى المطلق .

فان كان عالم الطبيعة عالما امكانيا احتماليا ، لتحوله ، ومحدوديته وعدم ثباته بالصيرورةالتى تلازمه ـ فأن عالم الوجوب (١) عالم ثبات وتنظيم وقوامه ووجوده ضرورى لقيام حوادث الكون ، وسائر ما فيه من قوى وخصائص قائمة به ولا سيما أن الوجود الوجوبى ما كان وجوده ضروريا لوجود غيره ، والوجود الامكانى ما لايقوم وجوده الا بوجود سواه ، ويستوى فيه طرفا الوجود والعدم ، لجواز طروئهما عليه ، بعكس الوجود الوجوبى الذى ليس له سوى طرف واحد هو الوجوب المحض (قيامه بنفسه) .

---

(١) عالم الوجوب هو العالم الذى يقوم بنفسه دون سبب على آخر ، ثم يقوم به كل موجود عداه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعلى هذا يكون وجـود كل ما هو ماثل مشـاهد فى عالم الكون والتحول وتقع عليه تجاربنا بنوعيها ، معقولة كانت أو محسة ـ وجودا امكانيا احتماليا بحتا ، لان الوجوب متضمن للامكان فى وجـــوده ، والامكان يتضمن الواقع ضمن امكانيته ، فلا يقال أبدا ان واقعيـــة الاشياء هى حقيقتها ، بل الاولى أن يقال : ان حقائق الظواهر والاشياء الواقعية المتحولة كائنة فيما وراءها من وجود وجوبى ثابت (١)يشمل ضمن وجوده امكانيتها وواقعيتها ، ولذلك كان الاحتمال سننا ملازما لسـير الكائنات الواقعية ، مثل الاحتمال فى تصرف الذرات وكالاحتمال فى كيفية مصير الكيان الطبيعى .

والنتيجة ان الوجود الوجوبى يتضمن مع ضرورة وجوده وجود سائر الامكانيات الوجودية ، ويحدد امكانيتها ثم يتحكم فى أيلوليتها وبعبارة أخرى ان عالم الوجوب هو عالم العلية الثابتة المطلقة ، فى مقـــابل أن عالم الامكان ، هو عالم المعلولية المحدودة ، والواقعية «المتراوحة » بين الوجودية والعدمية .

ومثال ذلك : وجود الدائرة الهندسية ومركزها : فان وجود المركز ضرورى لوجود الدائرة مع أقطارها ومحيطها ، ووجود الدائرة متوقف على وجود مركزها ضرورة ، فان وجد المركز ثم وجدت الدائرة أو لم توجد ـ لا يطعن هذا فى وجـود مركزها ، لأن المركزية نقطة رياضـية وجودها فرض ضرورى ، ووجود الدائرة بمحيطها وأقطارها بالنسبة له فرض امكانى جائزة الوجود والعدم .

ثم ان وجود الدائرة بأسرها ، متضمن فى وجود المركز الذى بمجرد تصوره يحدث تصـور امكان وجود الدائرة وجدت فى الخارج أم لم توجد .

وكذلك شأن العالم الامكانى بالنسبة للوجود الوجوبى المطلق ، فان وجود عالم الامكان متوقف على وجود عالم الوجوب ولازم عنه ، كمـا يلزم وجود الدائرة عن وجود المركز .

---

(١) لان ظواهر الأشياء البادية لحواسنا غير حقائقها طبعا ، وحقائقها كامنة وراء تلك الظواهر كحالة الجرم والطاقة التى تكونه وتحوله مثلا . فحقيقة الطاقة الكامنة فى القوة المحركة وحقيقة الجرم كامنة فى الطاقة ، برغم أن الاجرام هى وحدها المشاهدة للحس فى الواقع الخارجى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فعلاقة العالم الامكانى بالعالم الوجوبى علاقة معلول بعلته ، أو قل : ان العلاقة بينهما علاقة تلازمية .

ومعلوم بداهة أن محيط الدائرة ليس هو أقطارها ، وليست الاقطار هى المحيط ولا المركز ، واما المركز فهو المركز الضرورى الوجود ، وهو الاقطار أيضا ، وهو المحيط فى وقت واحد ، بوصفه العلة الاولية وليس الامر بالعكس .

. وكذلك كينونة الكائنات بأسرها بالنسبة لسببها الاول ، فهو علة الكل ولا شيء من هذا الكل يمكن أن يكون علة له ولا لنفسه،لان الكائنات فى مجموعها مجرد وحدات امكانية تمثل العلة ، كما تمثل نقط المحيط المركز وليس المركز بواحدة منها ، وليست الاقطار هى المركز أيضا .

وكما ان المركز لا يحل بذاته فى نقطة من نقط محيط الدائرة ولا فى قطر من اقطارها فكذلك السبب الاول للوجود لا يمكن أن يحل فى وحدة من وحدات الكائنات ولافى مجموعها ، ولا يتحد بشيء منها اتحادا مزجيا أو مخالطا لانه مطلق الوجود وهى محدودة وشأنه معها كشأن نقطة الماء اذا اتحدت بالمحيط الذى انبثقت عنه .

واليك بعد هذا المثل بل الدليل الرياضى دليلا آخر طبيعيا على وحدة المصدر واستقلاله فى ذاته عن سائر ظاهرات نشاطه ، وذلك الدليل أو المثل هو القوة الطبيعية العامة ، فان القوة فى اطلاقها هى القوة وهى الطاقة ، ثم هى الحركة ، والسرعة ، وهى أيضا النور والحرارة ، والصوت والكهربا ، والمغناطيس ، وليست واحدة من هاتيك هى القوة بالذات ، لأنها جميعها نتاج طاقة القوة أو نشاطها ومجرد حالات وخصائص وأطياف لها . والقوة هى مكونة هذه الظاهرات ومحولتها بعضها الى البعض الآخر ، وتظهر القوة فى ظاهرتها بطاقتها وبالطاقة (١) فقط .

ولو كانت بذاتها فى واحدة من تلك الظاهرات ما أمكنها أن تكون هى الظاهرة الأخرى ، وانما الواقع أنها كلها مقادير من الطاقة تمثل قوة عامة أعلى منها جميعا وأنها مع ذلك متوحدة .

---

(١) الطاقة هى النشاط الكمى الموجه من القوة العامة لتكوين مظهر خاص وضرب معين من ضروب النشاط وهو كمى أو كم نسبى يقاس مثل تقدير قوة عشرة أحصن أو مائة حصان فى حالة الضغط ومائة شمعة مثلا فى حالة الضوء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن هذا تفهم : أن القوة هى الأصل فى شيئية الأشياء وليست محصورة فى شيء بعينه منها .

ولا يمكن أن تفهم مع ذلك أن القوة الطبيعية هى العلة المبدئية للوجود، وانما هى كعلة ثانوية قريبة للظواهر تدل بتوحدها وتعدد ضروب فاعليتها على توحد مصدرها وباعثها ومنظمها (الأول الأعلى) الذى هو سببها وسبب غيرها من ممكنات مادية أو حيوية أو عقلية (١) .

واليك مثالا آخر نفسيا عقليا : فأنت تعلم أن أعمالنا تؤسسها أفكارنا وليست الاعمال هى الفكر نفسه ، ولا هى تحتويه ولا هو جزء منها وان كان فكر الانسان هو فكره وعمله فى وقت واحد بتقدير أنه الأصل ، وأن أعمالنا الصادرة عنه الى الخارج مجرد ظاهرات له وقائمة به .

فاذا كان مركز الدائرة ينشيء من تلقائه جميع أقطارها ومحيطها ، واذا كانت القوة تنشيء الأشياء كمظاهرات لها ، والفكر يؤسس أعمال الانسان كحالات له ، وليس هو بواحد منها — فكم يكون هذا شأن السبب الاول العلى المطلق الذى هو علة الفكر والقوة والشيء جميعا ، وهو بذلك أولى ؟

وبهذا التصوير والتدليل الرياضى والطبيعى والنفسى المطابق للحقيقة بالفعل يكون الوجود فى مفهومه وواقعيته ككل مطلق يمثل دائرة واحدة مركزها فعال فى محيطها ، ومحيطها يئول فى النهاية الى مركزها ، فمحيطها المادة ، وأقطارها حالات الوجود العامة الخفية المؤثرة فيه : كالقوة والحياة والفكر . وأما مركزها فهو السبب الاول الكافى المبدع الذى من خصائصه الحياة الواعية الشاملة ، والأرادة العليا المبدعة ، والفاعلية المطلقة ، وهو سبب كل ما ترى وما لا ترى من أشياء وقوى ونظم ،والكل معلول له وهو على حد القول كائن وراء كل ما تعرف من فكر وقوة وشيئية .

---

(١) انظر الأشكال البيانية فى آخر الكتاب وخاصة الشكل رقم ١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثانى

العالم قوة وارادة وحياة

وأنت أينما اتجهت ببصرك أو بعقلك أو ببصيرتك فى الوجود لا تجد فى نهاية الأمر والمطاف سوى قوة عامة أو قل قدرة تبرز وحدات هـذا الكون وتصل تحويلا وتصنيفا صيرورة المبادىء بالغايات بوساطة سنن سنها وعى مطلق .

وكذلك ترى حياة شاملة من أخص خصائصها الوعى والتنسيق والابداع ، ومن أظهر وظائفها تدريج الكائنات الحية فى سلم الترقى ، وتطويرها من البسيط الى المركب ، ومن المركب الى ما هو أعقد منه تركيبا حتى تصل الى الانسان المدرك المتأمل ، ثم تطوره بعد التعقيد الجـزئى والكلى الى بساطته الأولى ليكون للرجوع الى أصـله الذى ينصب فيه كما ينصب الجدول فى المحيط الذى انفرج عنه .

وكذلك تلمح فى الوجود ارادة عامة منظمة تنوع الكائنات فى اطلاقها ـ حية وغير حية ـ وتضع وتحدد لها مبادىء ووظائف وغايات عـدة ، ثم توجهها توجيها مؤتلفا الى مقاصد معقولة يدركها العقل المجد فى تأمله ، فيحكم بتوحد مصدرها وغايتها .

وكل هذا يبعث الفكر السليم والقلب الحى معا على اعتناق يقينية مستخلصة من النظـر والاستقرار الصحيحين لوحدات الوجود كنتيجة للبحث مضمونها . أن هذه الكائنات ـ منظورة كانت أو خفية ـ انمـا تقـوم فى وجودها وعلائقها على حقـائق وعوامل مجردة مستنبطة فى مجموع الوجود منها القوة العامة والقوانين المسيطرة ، ثم الحياة المدركة المطورة ، والارادة المقننة ، فينشأ عن اتسـاق هذه الحقائق والعوامل ومن تضامنها على الابداع والتنويع والتطوير ـ عالم عظيم متوحد منظم متسق ، ينزع الى التطور والترقى طلبا للكمال مما يحملك قسرا على الاستنتاج بأن هذا العالم المتوحد انما هو نتيجة لفعل علة واحدة كاملة تشمل فى نعومتها وخصائصها سائر ما وراء الوجود الظاهر من حقائق ونظم خفية ويكون الكون كمحيط لسلطانها أو تأثير خصائصها أو كأثر لها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الثالث

الفصل الأول

سبب الوجود وعلته

على أن العلة الاولى « تتمركز » فى الوجود كسبب أولى مبدع ومسيطر ، علاقته بسائر الكائنات علاقة موجد مكون مقوم بموجود متكون مقوم . وهى متسامية بهويتها (١) وخصائصها الذاتية عن أن تمتزج بتلك الكائنات أو تحل فى شىء منها .

ويلزم عن ذلك أن يكون وجود العلة وجودا وجوبيا تلقائيا قائما بذاتها ، ويكون وجود ما عداها من الكائنات ونشاط تلك الكائنات الذى يثير حوادثها (تكوينا وتحويلا) وجودا امكانيا مقوما بذلك الوجود العلى الوجوبى .

ولذا ترى عقولنا مجبرة على التسليم بضرورة الوجود الوجوبى الاولى المطلق وادراكه لتعليل الوجود الممكن الواقع ، ذلك الوجود المطلق الواجب الذى ينتهى اليه فى النتيجة تسلسل الظواهر والحوادث والعلل، وتقوم به كينونة سائر الكائنات الامكانية وجميع عللها الثانوية وعواملها الخفية وتتميز علائقها ذاتية كانت أو موضوعية كوحدات له .

ويكون ادراكنا لمعقولاتنا الذاتية واحساسنا بالعالم الخارجى ادراكا واحساسا نسبيين لذلك الوجود الواعى المطلق ، ولا اطلاق فى هذه النسب الادراكية والحسية قاطبة وان حظيت بشىء من التعميم لأنها

---

(١) الهوية هى الحرف الواقع لدى التساؤل عن .. ماالشيء في ذاته ؟ ويكون المراد الهوية ، وهى أيضا بمعنى الماهية . والقول منصب على ماهو كجواب له .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كائنات نسبية على كل حال كما لا يخفى ، وانما الاطلاق خاص بالكل كوحدة مطلقة .

وفى الحق أن احساسنا بالعالم الخارجى وشعورنا بعالمنا الداخلى الذاتى نزعتان متجاوبتان ومتناغمتان مع الادراك السامى البادى لنا فى محيط الكائنات ، والذى يسطع فى الوجود المطلق ويتمثل فينا ونستمد منه منطقنا العقلى وشعورنا الذاتى واحساسنا بالعالم الخارجى ومنه تكتسب افكارنا وعلائق الاشياء فى عمومها ، والقوانين فى شموليتها صفة الاطلاق والثبات البادئين كأثر نسبى لذلك الكل المطلق ، وذلك ما يقرر ضرورة الوجود الوجوبى المطلق ، لتقوم به تلك النسبيات .

فهذا الادراك المطلق البازغ وتلك الفاعلية العامة وما تدل عليه السنين والقوانين من ارادة « عليا » منظمة وراءها ـ كل أولئك تحقيق لذلك الوجود المطلق الواجب الذى نتكلم عنه ، والذى نحن أبعاضه ووحداته ، ومن ثم يكون ذلك كله اعلانا صريحا بأن لابد للكائنات من سبب أول كاف متوحد لا يناظره شيء فى الوجود . أنشأ الكائنات وقومها ودرجها من البطون الى الظهور ، ومن النقص الى الكمال بحسب سنة أبدعها وقانون عام هو التطور والترقى ، وبهذا القانون نفسه يتحول الكون المتشيىء المتطور الناقص الى ذلك الوجود المطلق المطور الكامل . كما يتحول النهر الى المحيط الأعظم الذى يستمد منه وجوده .

ولا يفهم من هذا أن بروز المبدع الناقص عن المبدع الكامل دليل على نقص العلة أو جمودها ، كما يتوهم أفاكو الماديين أو يموهون به على الناس (١) ، وانما هذا دليل على كمالها وفاعليتها ، لأنه اذا تساوى المعلول بالعلة (المبدع بالمبدع) انتفى الكمال والنقص معا .

والمعقول المرجح أن يكون كمال المعلول دائما كمالا نسبيا تابعا لكمال العلة مهما تطور وترقى ، وأن يبرز المعلول عن علته الكاملة مبدئيا فى حالة من النقص القابل للكمال ، فيتطور الى علته متكملا ، وتكون هى

---

(١) يرى الماديون أن فى صدور الكائن الامكانى الناقص عن علة كاملة عكسا للمنطق لقياسهم على المحسات المادية حيث يرون أن الناقص لا ينتج الا ناقصا ، وغرضهم من ذلك تنقيص العلة التى تؤمن بها المؤلهة ، والحق أن العلة يجب أن تكون كاملة ، فلو فرضنا كمال العلة وكمال المعلول فأى فرق يكون بينهما ؟ ولو قيل لهم : ان علة الوجود يلزم أن تكون كاملة لا دعوا كما هى طريقتهم أنها تكون جامدة لعدم تطورها كما يشاهدون فى الكائنات الامكانية التى تتطور من النقص الى الكمال والتى هى مقياسهم الوحيد ، والمقصود من هذا كله طبعا مجرد التضليل والسفسطة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى هذه الحالة كهدف غائى له ، فاذا بلغها تناهى المعلول الناقص الى علته الكاملة كنقطة نهائية له تدل على تكامله .

وبهذا يكون قانون الترقى مفهوما ومبررا والا بطل الترقى ، وجمد الوجود الذى من حقه أن يتطور (حـــالة أنه متطور بالفعل) وجمدت العلة التى من أبرز خصائصها النشاط جمود العدم المطلق .

فان قاس الحسيون والماديون العالم الوجوبى العلى الأسمى الذى من أبرز خصائصه الفاعلية والكمال على عالمهم الطبيعى الأدنى ، ذلك العالم الامكانى الناقص المنفعل ، واتخذوا له معايير من محدودية الاشياء وعدم استقرارها ــ فقد أخطئوا القياس ، وخالفوا المنطق السليم ، وان ارتأت الحواس وجزم الواقعيون والآليون أو من نهج نهجهم ممن لا يؤمنون الا بالأشياء الواقعية المحسة ــ بأن للأشياء المحسة ثباتا عينيا أو واقعية مستمرة مع تنوعهـا وتحولهـــا ، أو رأوا للمادة وجودا ذاتيا ، ولا شىء وراءها كعلة أسمى منها تعين واقعيتها ، وتقدر نسبها وتكونها أو تحولها أو تلاشيها ــ فان الحقيقة غير ذلك ، وما المادة فى حقيقتها الذاتية الا كم من الطاقة والسرعة يكون حوادث أو قل أطيافا مرئية غير ثابتة طبعها التذبذب أو التحرك ثم الاسراع أو التباطؤ لا أكثر ولا أقل ، مما يدل على أنه ليس للمادة ذاتية مستقلة فى الوجود ، وانما تتراءى للحس كصيغ من الصور والكيفيات والأحوال وكأنها ثابتة لازدياد السرعة . وان هى لدى التحقيق العلمى الذى أدت اليـــه مبـــاحث العلم الحديث الانتاج طاقة من التيار الكهرنورى أوكهراتيس (١) . تحدوها الحركة والسرعة مندفعة تحولا وانشعاعا صوب محيط القوة العامة الذى صدرت عنه وتتحول اليه .

وبهذا « الاعتبار» العلمى المحض تصبح المادة فى كتلتها وسائر مظاهرها كائنا معلولا لعلة خفية هى القوة ، والقوة فى ذاتها غير منظورة طبعا ولا نعلم عن ماهيتها شيئا .

ثم زد على ذلك أن المتأمل فى عالم الكيان الطبيعى تأملا عقليا مستغرقا تتوارى لدى تأمله تلك الكثرة التى كان يراها متغايرة موزعة فى محيطه، فتتوحد الكائنات وعلائقها لديه توحدا يشـعره بأن الكل وحدة يفنى فى شمولها التعدد والجزئية .

ويرى أن أعظم العوامل الفعالة فى تلك الوحدة المطلقة وأكبرها

---

(١) الكهرنورى : تركيب مزجى من كلمتى النور والكهرباء ، والكهراتيس : تركيب مزجى من كلمتى مغناطيس وكهرباء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تأثيرا ما كمن وراء الظواهر والاشياء الواقعية ولا يدركه الحس من العوامل الخفية (١) . وذلك ـ طبعا ـ ما يستنكره الماديون والواقعيون، وان سلم به العلم فى أعلى آفاقه أو يرغمون عمدا على الاقرار بوجوده وهم يعرفونه أو يرجعونه للمادة نفسها بحكم التقيد بقانون الحواس الخمس وهو شرط علمهم .

وكل هذا بديهى الاستحالة فى الوجود المجد المتطور المترقى لأسباب تكلمنا عنها وأسباب سنذكرها أقصاها القصور العلمى أو العقلى . ويرى المتأمل أيضا أن عالم الاشياء والظواهر متحرك حركة غير منظورة ، وان كانت تشهده الحواس ثابتا ساكنا .

ومن ثم يشهد بشعوره الفطرى حقائق الوجود ماثلة مثولا مشهودا للادراك أو للوجدان شهودا يقينيا وراء الحس فى الوقت الذى يفتر فيه احساسه بذلك الوجود المحس المنظور المجزأ : ومثال ذلك وجود الكتلة المادية وثباتها الذى سببه الحركة بين التدافع والتجاذب أو على أقل صورة ودورة الارض مثلا حول نفسها وحول الشمس وهو يراها ثابتة وكل مافيها من شىء يراه كذلك ثابتا ساكنا .

والحقيقة أن بسائط هذه المركبات وأصولها بل والجواهر الفردة التى تكونها وتشيئها فتجعلها محسة لنا ـ هى من الدقة والخفائية بحيث لا يمكن أن يقع عليها الحس ، وأن ذواتنا البسيطة غير المركبة وعقولنا التى ندرك بها الأشياء ادراكا عقليا أو حسيا مما لا يقع عليه الحس أيضا ، وبهذا وذاك يكون كل ما نرى أتفه مما لا نرى من أسرار الوجود ، وكل مالا نراه واقعا فى عالم الموضوع ـ أثبت واصل من سائر عالم الموضوع فى اتساعه الموهوم وجميع مشاهدصورة الطيفيه التى تؤثلها وتكون فى انحقيقة اشعاعات خفية وراء مشيئياتها وبروزها للحس وجمودها مدى المشاهدة الحسية .

---

(١) كتصرف الجوهر الفرد ، والألفة الكيمائية والطبيعية وما الى ذلك من قوانين خفية كالحياة والوعى والالهام والعبقرية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثانى

وجود الشيء والفكر وعلتهما

وليس معنى هذا أن الأشياء التى نحسها والعقل الذى به ندركها، وبه ندرك وجود ذواتنا ــ غير موجودين بالفعل ، كلا بل هما موجودان بآثارهما ومدلولاتهما : الأشياء فى الخارج مع صفاتها وكيفياتها (عالم الموضوع) ثم أوليات ادراكنا العقلى ومنطقه فى الباطن (عالم الذات) والادراك الحسى « كواسطة » بينهما (بين الشيء والعقل) ولكن وجودهما متعلق بوجود كائن مطلق أسمى منهما وأخفى ، يتوحدان فى نشاط صادر عن وجوده .

ولا شك أن اليقينية الحاصلة عن التجربة الباطنية (فى عالم الذات) مفسرة ومكافئة للتجربة الخارجية فى عالم الموضوع (الأشياء).

واذا كانت أصول المحسات كطاقات ذرية وأصول المعقولات كفكر ادراكية لا تتناولها حواسنا فما بالك بالعلة الأولى نفسها وأفاعيلها الخفائية التى لا يكاد العقل يصل لادراك بعضها الا مع الجهد الجهيد ؟

نريد أن نقول وعلى الأخص للذين لا يعجبهم الا أن يحصروا فهم الحقائق فى حسهم وفى حسهم فقط : ان للوجود ظاهرا متعددا محدودا، وباطنا خفيا غير محدود وبعبارة أخرى ان له باطنا مطلقا ، وما الظواهر المحدودة الا مجرد أثر أو فعل منفعل للفاعل المطلق القائم به باطن الوجود وظاهره . أو قل : ان هذه الكائنات المحسة مجرد مجال كونه غير المحدود كمظهر لنشاطه ولنشاطه فقط كما تكون الحياة خلايا الاحياء بأغشيتها وجدرها المحدودة ، وتظهر بمجرد نشاطها فى تلك الهياكل ، وهى فى ذاتها عامل مطلق لا يحصره كائن بعينه .

ولو رجعنا الى أنفسنا وهى أقرب الينا من كل شيء وفحصناها (جسدا وروحا) فحص خبرة تقوم على التجربة الموضوعية والذاتية معا لوجدنا أن جسم الانسان جزء من الكيان الطبيعى العام متأثر بسائر سننه وعوامله .

غير أنه وراء ذلك فى بواطننا وقرارة ذواتنا مبدأ روحى معقول يدل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

باطلاقه ووعيه وتنظيمه لكائناته الحية على أنه من أصل غير محدود ٠ بل ويمكننا أن نقول : ان ذلك المبدأ الحيوى الروحى الخفى هو العامل المشيىء للجسم من جرثومة لا ترى الى كيان سوى ماثل يرى ويلمس ويؤثر تأثيرا بالغا فى محيطه حسا وعقلا ونشاطا مركبا منهما ، وكأن الحياة أبدعته ابداعا من عدم كما يقولون ٠

وفى خارج ذواتنا (اى فى حقائق العالم الخارجى بأسره) ندرك هذا الأصل الروحى المطلق الحياة نفسه ٠ كروح عام يتراءى لشعورنا وأفكارنا وراء الأشياء التى نحسها ووراء المعقولات التى ندركها بحالة ذوقية تؤيدها التجربتان الفلسفية والعلمية ، وله وجود حقيقى نشعر بأثره وتتناغم عقولنا معه ، وندرك بعض غاياته العليا فى الأحياء وغير الأحياء وان كنا لا نبصر له أبدا ذاتا محسة ٠

هذا المبدأ السامى ـ وان كان وجوده وجودا ذاتيا مستنبطا فى سرائرنا وفى مطلق الوجود بخصائصه المبدعة ـ نرى أن أفاعيل نشاطه فينا وفى بقية الكائنات ومنها طاقة القوة أفاعيل موضوعية تشيىء الأشياء الخارجية التى ندركها بالحس وضمن ذلك أجسامنا طبعا ٠

والمفهوم المستخلص من كل ما تقدم هو أن للوجود فضلا عن الحياة وأفاعيلها المبدعة روحا عاليا أو مبدأ سببيا واحدا معقولا يتمتع بوعى فائق يدبر الكائنات وينظمها ، ويجعل وحداتها تهدف الى نتائج منطقية (حسية وعقلية) وضع هو مقدماتها ، ومن تلك الوجودية ـ قوة تنتج بنشاط طاقتها مادة ـ والمادة طبعا ليست ثابتة فى كينونتها وانما هى حالة عابرة من حالات الوجود المطلق كونتها الطاقة ، ثم هى نفسها تئول بدور آخر الى طاقة أخرى من القوة ، والقوة بدورها كخاصة وجودية لابد أن تكون مسوقة الى غايات ؛ ومن ثم تكون نتيجة لقدرة واعية كونتها وضبطت اتجاهاتها ونظمت طاقتها الموجهة والمشيئة للأشياء ٠

ومن تلك المقدمات ذات النتائج المعقولة وجود الحياة وبعبارة أخرى الروح ذلك السر الأعظم الذى حير منذ القدم الباب الباحثين من علماء وفلاسفة ودينيين ٠

ومنها تلك الارادة السائدة على سائر الكيان الدائبة فى تصريف الكائنات واظهار حوادثها بقدر مقدور من القوة ومقياس هو مدى السرعة الناجمة عن الطاقة البارزة عن القوة المطلقة ، وليس لنا من العلم به سوى الاحتمال المحض ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن تلك المقدمات أيضا ذلك الوعى المطلق الذى يتلمح فى مطلق الوجود وينسق وحدات الكائنات ، ويسوقها الى نتائجها ، وهو الكائن الذى لاتبدو عقولنا بالنسبة له الاكبصيص باهت من النور ٠

تلك القوة والخصائص المتعددة التى لا ينتهى العقل الى أغوارها الا بمقدرة أعظم من مقدرة العقل نفسه (١) هى العقل الهام أو قل العقل العام الذى يبدو وعينا وتعقلنا ومبلغ تفكيرنا كمظاهر نسبية له ٠ وهذه كلها مظاهر وحالات وجودية واقعيةبالفعل ، وبعبارة أخرىمقدمات ونتائج لازمة عن نشاط خصائص ذلك العمل السببى الأعلى الذى صاغها بمنطقه القاهر من نشاطه الذاتى ، فتتجاوب عقولنا معه برغم أننا أحيانا نتجاهل وجوده ، وتصرفنا عن ادراكه والتعرف اليه بعض النظريات الفلسفية الخاطئة ، أو بعض التجاريب العلمية الحسية القاصرة ، بيد أننا لا نلمح أينما وجهنا عقولنا أو بصائرنا فيما لوحدات الوجود من خصائص أو نشاط الا صدى أفعاله وآثار نعوته وفيوض خصائصه المبدعة مما يعلن صريحا أن المادة والطبيعة والعقل الانسانى ذاته ليستسوى نقاط نسبية نقشتها يد قوة « عليا » فى الادراك والفاعلية على محيط هذا الوجود وكانت هى المركز الأدبى الأسمى له ٠

ذلك الكائن العظيم المعجب المعجز الذى تستبطن خصائصه فى نشاطه ويستبطن نشاطه فى منشآته كما تستبطن فكراتنا العقلية فى أعمالنا الحسية هو سر معميات الوجود وحقائقه الخفية ٠ وكأنهذا السبب المطلق الخفى يدرك تمام الادراك ما هو متمتع به من وعى مطلق مطابقة نتائج أعماله لمقدماتها ، ولابدع فى ذلك ، اذ أنه العامل الأول المدرك الفائق الادراك الذى يدرك ويدرك فى وقت واحد ؛ والذى لانشك فى أننا نستمد منه مبادىء ادراكنا التى تتداعى لعقولنا من الخارج ومن الباطن كأوليات عقلية وحسية ، فترغمنا على الاقرار بوجودها ، بل واتخاذها قواعد وأدلة بديهية نتوج بها منطقنا ٠

ونحن نشهد وجود ذلك العامل شهودا عقليا وذوقيا واضحا فى مطلق الوجود ، ويأتلف ادراكنا تمام الألفة مع مداركه السامية ، ويقابلها تقابلا تطابقيا وان لم يكن تكافئيا ، وكأنما منطقنا العقلى الصحيح مستمد من ذلك المنطق العام ــ منطق السبب الأول المنبعث فى باحات الوجود ــ

---

(١) كشعور العقل الباطن والذوق الفطرى أو وحى البصيرة ونور البديهة أو هدى الايمان ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هو منطق واحد ومنطقنا لمع فيه ، تنوعت مقدماته ونسـبه ، وتوحدت مبادئه ونتائجه ومدلولاته ٠

وتلك هى الحقيقة التى لا محيص للعقل السليم عن تقريرها وفى نتيجة هذا البحث نقول :

ان هذا العالم الماثل لنا بناحيتيه ـ المعقولة والمحسة ـ معلول لابد له من علة أولية مدركة تستبطن وراء مظاهره وحقائقه ، وتنشىء أصوله ، وتوحد قوانينه وتنظم حوادثه وتكسبه النشـاط الذى يبدو فيه والذى تتكون به الكائنات مع مايبدو فيها من حياة ووعى وقدرة وارادة ٠ وتشيؤ ويظل نشاط خصائصها أسمى من كل نشاط طبيعى ؛ لأنه نشاط واع حى مدرك فعال تسوق به العلة الكيان الطبيعى بأسره متطورا متكاملا الى غاية مرسومة المسلك هى الكمال ٠

والكمال هو مجمع خصـائص تلك العلة التى لن يعلل الكون فى نشأته وتطوره وصيرورته الا بوجودها ٠

تلك العلة الواجبة كمبدأ أولى للوجود ، وجودها ضرورى كما قدمنا مرارا لفهم صدور هذا الكون وتعليل أفاعيله المحسـة والمعقولة ولألفة عقولنا التى لا تفتأ تنشد الحقيقة شاملة كاملة ٠

الفصل الثالث

حالات الوجود

ويفهم مما سقناه جميعا أن للوجود فى اطلاقه ثلاث حالات أو رتب ـ كما أثبتنا فى أول الكتاب مفصلا ـ وهنا نجمله اجمالا مركزا معاونة على صحة الفهم والاستنتاج بعد ما قدمنا من اسـتقراء وتمثيل وتدليل مشبع بالايضاح على قدر الطاقة فنقول :

ان الوجود فى حالته الأولى المطلقة وجود واجب ، هو نبع سـائر الموجودات ومصدرها الأعلى ومحورها المركزى ، وفى حالته الثانية وجود خفى معقول قائم بالوجود الأول وهو عالم النشـاط المستبطن والقوى والصفات والخصائص التى تبزغ فى النظم الكونية ٠ والتى تعمـل فى الظواهر كعلل قريبة لها ، وفى حالته الثالثة عالم ظواهر متشيئة وهو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عالم الوجود الطبيعى الامكانى وسائر وحداته المتعددة المتنوعة : واذن فأعلى تلك الحالات مقوم للأدنى مقوم به ولازم عنه ٠

وذلك يقتضى : أن يكون الوجود فى أعلى رتبة وأسماها وجودا مطلقا غير مقيد ولا محدود وفى أوسطها عالما معينا معقولا ، هو عبارة عن صفات وخصائص للعالم الأول ، وفى رتبته الدنيا (كعالم أشياء وحوادث) مجرد مظاهر عابرة نسبية لتلك الصفات والخصائص ٠

وما الكل فى الحقيقة الا وجود مطلق واحد ، والتقسيم والتعدد فيه مجازى نسبى يطلق بتقديرات ، وهو يتطور ويتحول من والى نقطة مركزية أو قل ذات تلقائية متوحدة لها نعوت أو خصائص « عليا » يقوم بها العالم الأول ، عالم الوجوب والابداع ، ولك أن تسميه عالم الوحدة والاطلاق ٠

وهأنتذا ترى فيما أدلينـــا اليك به من مقدمات ونتـــائج خلال استقرائنا معا للوجود أن الوجود فى مجموعه وما فى ذلك المجموع من عظمة وابداع وعوامل خفية وظاهرة انما هو وحدة مطلقة متمتعة بذات وصفات وأفعال تبدأ أفعـالها فى عالمهـا المطلق ـ عالم الذات ـ كعوامل ادراكية لخصائص ذات أولى ، وتظهر أفاعيلها بالفعل كنشـــاط وقوانين وحوادث فى عالم الموضوع (عالم الأشياء) ٠

أوقل معى كنتيجة لاستقرائنا الســابق : ان الوجود فى مبدئه أو نقطة « تمركزه » يصدر عن علة حية واعية مريدة نشيطة ، تبزغ أفعالها بسيطة كأبسط ما يتصور العقل من فعل ٠

ثم ان السبب الأول يسوق تلك الأفعال من عالم الاطلاق والخائفى ـ أى الوجود بالقوة ـ الى حيز الوجود الامكانى بالفعل كنشاط لصفاته وخصائصه ، وكطاقة أولية للنشاط الطبيعى العـــام الذى هو النتيجة الفعلية لتلك الخصائص كمقادير من الطاقة أو الذرات أو العناصر مستعدة للتشيؤ فى الفراغ المطلق ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الرابع

الفصـــل الأول

المادية والمثالية

المادية والوجود :

وليس الوجود مجرد مادة جامدة ميتة أو مجرد ظاهرات وأشـياء محسة فحسب ، كما يزعم الماديون والواقعيون ، وليست كل خبرتنا عنه هى كل ما تظهره لنا الحواس ، على مايراه القوم ولا كل ما تكشفه لنا المعايير والمقاييس والمجاهر منخبرة حسية دعامتها المحسات والمحسات فقط ، كما لو كان الوجود هيكلا أجوف لا روح ولا عقل ولا ابداع ولا حياة فيه ٠

المثالية والوجودية :

كلا ولا هو مجرد نظام مثالى عقلى محض كمـا يزعم المثاليون على تصوره ، وكما لو كان خلوا من واقعية الأشياء التى نرى ونحس وجودها خارج ذواتنا ، وكما لو كان الادراك العقلى هو الكل فى الكل ٠

الحلولية والوجودية :

وليس نظاما حلوليا لايفرق فيه بين الطبيعة وما وراء الطبيعة ، ولا تتميز فيه العلة من المعلول أو السبب من المسبب ٠

انما الوجود فى مجمـوعه ـ كل حى ـ ينبض بالحيـاة والادراك والنشاط والحركة ، وينزع الى غاية «عليا» يتسامى اليها وتشرف عليه وتدبره علة حية قادرة مريدة مدركة ٠ وان ارتأى فيه الآليون وأشياع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الآليين مع ذلك مجرد كتلة مادية جامدة تخلقها الصدفة وتسيطر عليهـا الضرورة !

والواقع أن كل نظرة فى الوجود منزهة عن الغـــرض والتحـيز والمذهبية الخاصة ــ تدلنا على أن الكون الذى نعيش فيه عبارة عن جملة حوادث تنشئها القوة بطاقتها ، وتسيطر على هذه الطاقة قوة عاقلة مهيمنة تفعل بمشيئتها الحرة دون أن يؤثر فى فعلها المطلق صدفة أو ضرورة ٠

الفصل الثانى

الأسلوب العلمى والحقائق الوجودية

والقوة فى نظر العلم الحديث وفيما يقرره من نتائج لتجاربه مسلم بها لا يمكن أن توصف بالمادية بمعناها كما كان يقرره أنصار المادة فى القرن الثامن عشر وفى حقبة طويلة من التاسع عشر حيث كانوا يجعلون القوة مجرد ظاهرة للكتلة المادية مع أنها (القوة) كائن غيبى لا تزال ماهيته ٠ يجهلها العلم ٠

وكذلك الحياة التى كان يرى أنصار المادة أنها أيضا مجرد تفاعل فسيولوجى أو ظاهرة للمادة مع أن الحياة كما نفهمها لا يمكن أن تنشأ الا عن مبدأ حى ، كما هو الرأى اليوم على مايقرره الصفوة من علماء الحياة ، وعلماء الجراثيم وكبار علماء الطبيعة ٠

وكذلك الفكر الذى كان يرى الماديون أنه مجرد افراز لعضو من الجسم هو المخ ، كما تفرز بقية الأعضاء سوائلها مع أن الكون جميعه اليوم وليس فقط مخ الانســان أو كل جســده بمجموع وظائفه فى نظر علماء الرياضيات يبدو كأنه محض معادلة رياضية عقلية لم تأت اتفاقا أو صدفة أو ضرورة بل عن محض تفكير حر وارادة حرة منظمة ٠

والنتيجة : أن القوة والحياة والفكر كلها حقائق وجودية وعوامل خفية لا يصل العلم بتجاربه المعروفة التى كل اعتمادها على مجرد الحواس الخمس ومجرد المجهر والمشرط والمطرقة الخ ، لاستيعاب حقائقها بمجرد الحواس الخمس الى حقائقها ، فهى جميعها وراء متناول أدواته وأساليبه التى تعتمد على الحواس وليس البحث عن كنههـــا من وظيفته ولا من